بنادق في لواء الجليل

قصة جديدة

بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

١ . بندقية فراضة

القينا مجسون في فراضة .

وفراضة قرية تقع في عربي صفد على الطريق الذي يصلها بالرامة وعكا . اما حسون فهو صبي في الثانية عشرة من عمره ، بدوي ، خلق الثياب ، تبدو في عينيه نظرة لص ، او هذا ما خيل الينا حين رأيناه لأول مرة مقعياً في رأس الزقاق الذي يفضي الى مخزننا ، يراقب بعين لا تطرف المجاهدين وهم يضعون في المخزن ذخيرتهم وغذاءهم .

وكان اول من انتبه منا الى حسون هو ابو سليم كسار الخيل. ولم يكن ابو سليم كساراً للخيل في الحقيقة ولكننا اطلقنا عليه هذا اللقب لما رأيناه من خوفه وللرعشة التي كانت تنتابه كلما ذكر امامه ان الانكليز سيهاجموننا أو ان فدائية الهاغانا تدور حول مراكزنا ليلاً لتنسفها بالالغام كما فعلت في دور قرية سعسع . ولعلكم تسألون ماذا كان ابو سليم يفعل مع المتطوعة من المجاهدين المفروض فيهم ان يكونوا شجعانا لا يهابون الموت . لقد كان ابو سليم صف ضابط متقاعد فأرادوا هناك ، فوق ، حيث كانت تدار عمليات المجاهدين ان ينفعوه فأرسلوه الينا برتبة ملازم مديراً لاعاشتنا . وقد احببنا ابا سليم على جبنه ، وذلك لما رأيناه من اهتمامه بصالح بطوننا ، ولأحتجاجاته التي لا تنتهي حين يضطرنا اهمال من هناك، فوق ، الى ان نأكل الفاصوليا البيضاء مسلوقة بالماء دون خبز ولا دهن .

حاصله ... كان ابو سليم كسار الخيل اول من انتبه الى حسون وهو يرمق ذخيرتنا واغذيتنا بعين الشره . ولعل ابا سليم ظن حسون من الهاغانا، فقد امسك بيدي بينما كنت احمل على كتفي صندوقاً من ذخيرة الرشيشات واشار بحذر الى وقفة هذا الصبي التي تدعو الى الاشتباه . ولما كان نصيبي من الحذر اقل من نصيب ابي سليم بكثير ، فقد عدت بعد ان وضعت صندوق الذخيرة في المخزن وفي يدي رأس من البطاطا عفن كبير وألقيت به في صدر ذلك الصبي الذي كان لا يتحرك من مكانه في رأس الزقاق. وكان الصبي مقعياً ولذا فقد اختل توازنه من قوة الصدمة برأس البطاطا، فانطرح على الارض. وندت من ابي سليم زفرة ارتياح حين رأى الصبي ملقى على جنبه . ولكني في الحق ندمت على ما فعلت ، فهرعت نحوه لأرى ماذا اصابه . ولعله ظن اني جئت لأضربه ، فقد قام من مكانه وتهيأ في حذر، لا للهرب ، بل لتلقي اللطمة التي خيل اليه اني سأكيلها له . ويجب ان اقول ان النظرة التي كانت في عينه لم تكن نظرة خوف ولا نظرة استسلام بل كانت نظرة صبر من هذا الخلق الذي اعرفه في البدو ، والصبر المشوب بالتمرد . ولم اكن اريد ضربه طبعاً فقد شعرت اني جرت عليه بما فيه الكفاية في قذفي له برأس البطاطا الكبير العفن . سألته :

— ما اسمك يا صبي ؟

— حسون .

— لماذا انت واقف هنا منذ الصباح ؟ أما لك عمل تعمله ؟

فسكت ولم يجب . فعدت اسأله :

— هل انت جوعان ؟

— لا ، ولكني اتفرج على البواريد .

فنطلعت الى صباه اليانع وقلت له :

— البواريد ليست للفرجة يا بني ، بل للضرب بها ...

وانصرفت لألبي نداء ابي سليم الذي كان يعد اكياس المؤونة باصابعه بينما كان قلمه مثبتاً وراء اذنه على هيئة صغار التجار في سوق البزورية . ولما انتهينا من وضع كل شيء في موضعه خرجت امسح العرق عن جبيني بكم بذلة المتطوعين العسكرية التي كنت ارتديها، فأبصرت حسون لا يزال مكانه من رأس الزقاق وعينه مثبتة على المخزن . فقلت له :

ألم تشبع من الفرجة ؟

فأجاب ببساطة :

— لا ، لم اشبع .

فأحطت كتفه بساعدي وانا اقول

— هل تحب ان تكون لك بندقية ؟

فرفع بنفور البدوي يدي عن منكبه ، وقال :

— ستكون عندي واحدة عن قريب .

— من اين ؟

— ذهب ابو العبد الى سوريا ليشتري سلاحاً فأعطيناه خمسة وعشرين جنيهاً ليشتري لنا بها بارودة جيدة . وقد قرب ان يعود .

ثم ادار ظهره وانصرف .

ومضت لنا ايام في فراضة ألفنا فيها حسون وألفناه . ولم يعد ابو سليم كسار الخيل يتخوف منه او يحسبه عيناً للهاغاناه ، بل انه اخذ يستعين به في الامور التي لا يستطيع غير صبي من اهل البلاد القيام بها . وهكذا اصبح حسون ينام على صناديق الديناميت في مخزننا ، ويتسلم من المجاهدين الذاهبين في اجازة بنادقهم او يسلمها الى المجاهدين الجدد الذين كانوا يجتازون الحدود في طريقهم الى قوانا المتوزعة في لواء الجليل . ويبدو ان حسون كان يرى في كل بندقية يمسك بها صورة البندقية التي سيحملها اليه ابو العبد من سفرته الى سوريا. وكثيراً ما وقعت عيني عليه وهو يسير باصابعه برفق على حديد البندقية او يربت بكفه على خشبها قبل ان يسلمها الى صاحبها . وكنت بين الحين والحين ، كلما لحظت عليه حنوه على احدى البنادق ، اصيح به :

— حسون ! ألم يعد ابو العبد ؟

فينتبه من استغراقه ويضع البندقية مكانها ويقول :

— قرب ان يعود ...

الى ان عاد ابو العبد ذات يوم . وبالطبع لم اكن اعرف ابا العبد . ولكن حسون جاء الي في ذات صباح لا تكاد قدماه تمسان الارض من فرط حبوره ، فقد عاد تجار السلاح من سوريا ضحى امس ، هكذا انبأ القادمون من صفد اباه في العشية . وعاد معهم ابو العبد ببندقية جيدة لحسون ، هكذا اضاف ابو حسون من عنده ليبل غليل ابنه. وراح حسون يتساءل ويتخيل

ويبدع في وصف البندقية التي أتى بها ابو العبد والتي لم يرها هو بعد . لم تعد بنادقنا تعجبه . انها بنادق فرنسية ، قصيرة ، خفيفة ، تحمى بسرعة ، واذا اطلقت في الليل قتلت صاحبها اذ تدل عليه عدوه بالنار العظيمة التي تنطلق من فوهتها . بضاعة فرنساوية !... اما البنادق التي تأتي من سوريا فهي غير ذلك : بنادق المانية عجيبة ، او تركية من التي صنعها الالمان للاتراك ، واذا ساءت تلك البنادق التي تأتي من سوريا فهي بنادق كندية من التي نهبها اولئك الابطال السوريون من الانكليز . ترى ما هي البندقية التي حملها ابو العبد لحسون ؟ ان خمسة وعشرين جنيهاً ليست بالمبلغ الكبير ، ولكن ابا العبد يعرف ابا حسون جيداً ويعرف انه باع كل ما عنده ليجمع هذا المبلغ ، لذلك فهو لا بد باذل جهده ليشتري به بندقية جيدة لحسون يتسلح بها كل يوم ويحملها في الليالي حين يجيء دوره للاشتراك مع شباب القرية في تولي الحراسة الليلية ... هكذا كان حسون يقول لنفسه دوماً ولي احياناً . ولا بد ان استمراره في محادثة نفسه بهذا طيلة فترة انتظاره عودة تجار السلاح جعلها مستعدة لأن ترى في البندقية التي سيحملها اليه ابو العبد خير بندقية في الدنيا . ولم يتغير اعتبار حسون لبندقيته حتى بعد ان رآها. فقد كانت في الحق بندقية هزيلة. مسكوفية بالية القاعدة الخشبية ؛ قد احيطت من وسطها بحلقة معدنية . اما رصاصها فلم يكن اصلياً ، اذ لا بد ان المعامل التي كانت تصنع ذلك الرصاص قد توقفت عن العمل منذ زمن بعيد ؛ ولذلك فقد كانت مرفقة بعدة امشاط من الرصاص الصب ، كان ابو حسون يحملها في حزام قديم . ولما رأيت حسون يخطف البندقية من يدي ابيه وينطلق فرحاً ليريها لأبي سليم كسار الخيل واصحابه من المجاهدين الباقين في فراضة ، سألت ابا حسون :

دار بيروت - للطباعة والنشر

بناية العازارية ، تلفون ٣٩٥ بيروت - لبنان

صدر حديثاً

نهاية الاستعمار   تأليف هوبيدديشان

هذه هي الفوضوية   تأليف هنري أرفون

. . .

يصدر قريباً

سيكولوجية المرأة   تأليف الدكتوره جينا طبروزه

السلوك الجنسي عند المرأة   تأليف الدكتور الفرد كنسي

كارل ماركس   تأليف هنري لوفابر

بخارى   تأليف القاص الروسي صدرالدين عيني

قصص مختاره من الادب الفارسي   ترجمة محمد سليم رشدان

تطلب هذه الكتب من :

وكيل الدار في عموم افريقيا السيد محمد خوجه — تونس

وكيل الدار في عموم العراق السيد محمود حلمي — العراق

— الم يجد ابو العبد لك خيراً من هذه البندقية ؟

فقال البدوي في مرارة :

— هذا ما تأتي به الخمسة والعشرون جنيهاً .

وسكت قليلاً ثم اردف :

— ينبغي لك ان تسمع ابا العبد لتعلم ماذا تحمل حتى استطاع شراء البنادق التي جاء بها . لقد اصبح السلاح هناك ، في سوريا ، اغلى من الذهب . كلما تسامعت باني العبد قرية ارتفع سعر البندقية خمسة جنيهات ... واي بنادق ؟ نعم لقد عاد التجار ببنادق جيدة ، ولكنها ليست بخمسة وعشرين جنيهاً ولا حول هذا المبلغ ... الحكومة هناك سهلت مهمة ابي العبد، ولكن ماذا تفعل الحكومة مع من لا دين لهم ولا وطنية عندهم ؟ كأننا نريد البنادق لا لندافع بها عن اعراضنا ودمائنا بل لنغزو بها ونكسب الاموال !

وسكت ابو حسون وهو يتبع بنظره ابنه الذي لاح في احد منعطفات القرية يحمل مسكوفيته البالية ؛ ثم قال :

— يقول ابو العبد انه كاد ان يعود بالخمسة والعشرين جنيهاً دون ان يشتري بها شيئاً . فقد اعجزه ان يجد بها بندقية صالحة . تصور الخيبة التي كانت تصيب حسون لو حدث ذلك ! انه يهذي بالبندقية ليل نهار . ولكن شيخ العشيرة الذي اشترى منه ابو العبد سمع ببنادق صالحة بين عثمانية والمانية عرض عليه هذه البندقية بخمسة وثلاثين جنيهاً . فلما قص عليه ابو العبد قصة بقرتي التي بعتها رضي ان يتنازل عن هذه المسكوفية بالخمسة والعشرين جنيهاً . صحيح انها في زمن اليسر لا تباع باكثر من عشرة جنيهات، ولكن ماذا نفعل ؟ ليس لنا إلا ان نشكر ابن الحلال شيخ العشيرة ذاك ان يرد قاب الصبي وييسر لنا سلاحاً ينفعنا وقت الشدة . فشكراً له ، شكراً ...

وطرق اسماعنا فجأة صوت طلقة . كان في الاتجاه الذي ذهب فيه حسون. لقد استبد الفرح بالصبي فأراد ان يجرب بندقيته . ورأيت الوالد المسكين ترتسم على شفتيه ابتسامة حزينة وهو يقول :

— لو يقتصد في رصاصاته !

وعاد يحدثني. ولكن جلبة ارتفعت من آخر الزقاق ورأيت حسون مقبلاً. ولم تكن بندقيته معه. كان يمشي متخاذلاً وقد امسك احدى يديه بالاخرى. فهرعنا راكضين انا وابوه ، وصحت :

— ماذا حدث يا حسون ؟

فمد الي يده اليمنى وكانت كفها ممزقة يقطر منها الدم وتتدلى فوقها جلدة ذراعه . لقد اراد ان يجرب بندقيته فصوبها الى صخرة الجامع فانفجرت لأول طلقة في كفه ...

وكان واحد من اهل القرية يحمل حطام البندقية بيده . وخرج ابو سليم كسار الخيل يحمل المطهرات ولفافات الضماد ليسعف حسون . اما انا فقد تطلعت الى ابي حسون فرأيت عينيه تغرورقان بالدمع وهو ينقل النظر بين اشلاء البندقية واشلاء كف ابنه . وسمعته يتمتم ، واحسبه كان يعني شيخ العشيرة ، الكريم ، بائع السلاح الذي باع ابا العبد بندقية مسكوفية مهترئة بخمسة وعشرين جنيهاً، احسبه كان يعني ذلك الشيخ فيما كان يقوله بينه وبين نفسه مردداً في خفوت :

— شكراً له ، شكراً ...

٢ . بندقية الحقاب

انا اوافقكم على ان حكاية بندقية فراضة هذه محزنة . هؤلاء الذين لا يخافون الله ولا يعرفون للوطن حقاً فيرفعون سعر السلاح حين يرون الناس بحاجة اليه ليدافعوا به عن ارضهم وعرضهم . واولئك الانذال الذين يبيعون

المجاهدين بنادق تالفة تنفجر في ايديهم . وحسون المسكين الذي اضاع مال ابيه واصابع كفه . كل هذا محزن . على اننا يجب ان لا نتشاءم، فليست كل حكايات البنادق محزنة ، بل فيها احيانا مهازل ومضحكات . ومن هذه المضحكات حكاية بندقية الحقـــاب .

الحقاب خربة متهدمة كائنة في واد منعزل في جنوبي صفد في الطريق الذي يصل فراضة بجب يوسف . هل قلت في الطريق ؟ في الحق ان الحقاب ليست على طريق ، اية طريق . وهذا ما اعطاها ميزتها بالنسبة الينا . فقد اودعنا في بنائها المتهدم ذخيرتنا حين استقرت جماعتنا في قرية الغديرية . وكان الرقيب سمعان مكلفاً بحماية الذخيرة والهرب بها على بغاله في المسالك الوعرة اذا ما حاول التسلل اليها عدو ، او اتلافها اذا لم يكن بد من اتلافها . والصحيح اني ، حين جئت من الغديرية لأحمل بعض الذخيرة الى جماعتنا، حسدت الرقيب سمعان على جواره للبغال وعلى سكناه في خربة الحقاب . فقد كان الوادي الذي تقوم فيه الخربة هادئاً في تنائيه عن القرى، تفرش الخضرة قاعه وتنمو في سفحه الاشجار البرية . وكانت هناك عين جارية وراع صبي يصفر بشبابته لجداء صغار تتواثب بين الاشجار المورقة ولا تهمها في شيء همومنا . واظن اني نسيت اخواني المجاهدين للحظة وانطلقت اريد محادثة الصبي الراعي. ولكن شبحاً لاح لي بين الصخور مقبلا من وراء السفح اعادني الى واقعي . فخرطت عن منكبي بندقيتي التي لا تفارقني وتهيأت لملاقاة هذا الوافد الغريب. وانحدر الشبح يتدهدى من اعلى السفح الى قعر الوادي في اتجاهي. كان احد المجاهدين عرفته من هيئته ولم اعرف شخصـــه ، مقبلاً في سرعة وبندقيته في يده . فصحت به :

— قف مكانك ... ماذا جاء بك الى هنا ؟

ورأيته يقف مرتاعاً ، فلم يكن يتوقع رؤيتي . واعدت عليه سؤالي :

— ماذا جاء بك الى هنا ؟

قـــال .

— لقد وقعت الواقعة هناك ...

فأحسست بان اصابع قاسية تقبض على فؤادي وان ريقي قد نشف في لهاتي ، وصحت به :

— ماذا جرى ؟

— لقد هوجمنا . قنابل الهاون، والرشاشات، والجيش الانكليزي يزحف.

ووجمت . كان ذلك منتظراً ، فما كنا نخاف اليهود وانما كنا نحسب حساب الانكليز . وكان يجب ان يطير فكري الى اخواني هناك في قلتهم والجيش الانكليزي بدباباته ومشاته يطوقهم . والى قرية الغديرية بدورهـــا الحجرية القليلة وبويتات الشعر المنتثرة بينها وقد ارتفع منها صراخ الاطفال وعقل الذعر ألسنة النساء فيها. كان يجب ان يطير فكري الى ذلك، ولكن هذا لم يحدث، وانما الذي حدث ان عيني ثبتت على هيئة المجاهد الناجي بنفسه تتفحصه . كان شابا في مقتبل العمر مستقيم القد احمر المحيا قد انسجم عليه الثوب الخاكي وانتعل حذاء جديداً مما يلبسه المتأنقون من الضبـــاط لا يمت الى بساطير المجاهدين الخشنة بصلة . وتوقفت نظرتي على بندقيته التي كان يحملهـــا في يده اليمنى من وسطها وهو مغذ في سيره . كانت بندقية انكليزية جديدة يلمع حديدها تلك اللمعة الكآبية للبنادق التي لا تفارقها العناية . وكان حزامها القماشي المتدلي منها جديداً بالغ النظافة . فقلت لنفسي : ما اجملها من بندقية ! ولكن خيطاً غليظاً يشبه ان يكون خيط المجراد الذي تنظف به البنادق كان يخرج من فوهتها ويتدلى حتى ليكاد يمس الارض ، جلب انتباهي واثار تساؤلي .

غريب ان ينصرف الانسان في مثل هذا الموقف الى ملاحظة اشياء تافهة كهذه . ولكن هذا ما حدث لي . وبينما كنت في انتباهي اتتبع هيئة صاحبي المجاهد وانمق سلاحه كان لساني يتابع سؤاله بدون وعي :

— وانت ، ما الذي جاء بك ؟

قـــال :

— كما ترى ، غصت بارودتي بالخرقة التي انظفها بها ، وانا ذاهب لأخراجها وسأعود الى المعركة ، حتما سأعود ...

فسألته وكلي انتباه الى ما سيقوله هذه المرة :

— واين تريد تنظيفها ؟

— في القدار .

رددت قوله الذي قاله ، متعجبا :

— في القدار !

لقد كان بيننا وبين القدار ساعتـــان للسائر المسرع ، أفكل هذه الرحلة لتنظيف بندقية مما علق بها ؟ وانطلقت افقه بقوة بينما خليت بين حامل هذه البندقية البديعة والطريق فمضى فيه مهرولا، قابضاً على بندقيته من وسطها وقد تدلى من دونها حزامها وسال من فوهتها خيط المجراد الطويل .. لقد علمت اني وقعت على فتى مسكين منقطع قلبه من الخوف .

ولا بد لي من القول اني عدت مسرعاً الى مقر جماعتي فوجدت ان ما رواه الهارب لم يكن الا وهما . لقـــد ارتفعت اصوات الصفارات في انحاء القرية لشأن ما فظن الفتى انها الواقعة، فطار فؤاده، فانطلق من الغديرية الى القدار ليخرج من فوهة بندقيته خرقة المجراد... انطلق ولم يعد الى اليوم ! حينذاك عادت الى ذهني صورة تلك البندقية ، بندقية الحقاب ، فقلت لنفسي ونحن في مكان البندقية الجيدة فيه خير من لحى الرجال الخنع :

— ما اجملها من بندقية ، وما اضيعها في يد جبان !...

٣ . بندقيـة دلاّته

انا آسف اذا كنتم لا ترون في حكاية بندقية الحقاب ما يضحك . اما انا فقد اضحكتني يوما طويلا كما اضحكت معي كثيراً من المجاهدين . حين يطير محارب مسرعاً ، والمعركة محتدمة ، الى قرية تبعد ثلاث ساعات عـــن الميدان لينظف بندقيته فلا اقل من نضحك من ذلك المحارب . ولكن الملازم محمد لم يكن يضحك معنا بل كان كعادته يتفلسف حول فرار اخينا ذاك حتى ليكاد ان يقنعك آخر الامر انه في طيرانه لم يفعل غير انه قام بواجبه ، مثلما فعلت انت حين صمدت تحت وابل قذائف مدافع الهاون ورصاص الرشاشات.

وكان للملازم محمد فلسفته في كل موقف من مواقفنا في لواء الجليل . كان يشرح لنا تلك الفلسفة في محاضرات طويلة احياناً ، واحياناً يوجزها في جمل قصيرة لاذعة يلفظها بلهجة بلدته التي تقع غرب حلب في شمال سوريا ؛ فنحس انه يشق بتلك الجمل ستائر واهية عن الحقيقة العارية . ان لهجته الخاصة تلك اذ تمر بي ذكراه الان، لتقرع اذني وتتردد في مسمعي كأنه لا يزال بجواري حياً لم يمت. ذلك ان الملازم محمد مات في ايامنا تلك، قضت عليه في لواء الجليل رصاصة رشاش فدفن ، وهو ابن البلدة الشمالية من سوريا على رابية في جنوب هذا الوطن الذي مات في الدفاع عن ارضه ومقدساته .

كان الملازم محمد ، بالطبع قبل ان تقضي عليه تلك الرصاصة ، رئيسي . قدم الينا حين كنا في طيطبا فواجهته اول ما واجهته مشكـــلة اعيت الرقيب الذي كان يقود جمـــاعتنا قبله . فقد ابى اهـــل طيطبا ان يعينونا في حفر خنادق حول بيوتهم المنتثرة ليرابط فيها الحماة ، بل قالوا للرقيب : احفرها انت ورجالك ، ليس هذا شأننا . وعبثاً كنا نشير لهم الى مستعمرة عين زيتيم القريبة منا والتي اقام اليهود حولها تلولا من التراب حتى لم يعد يبين منها غير

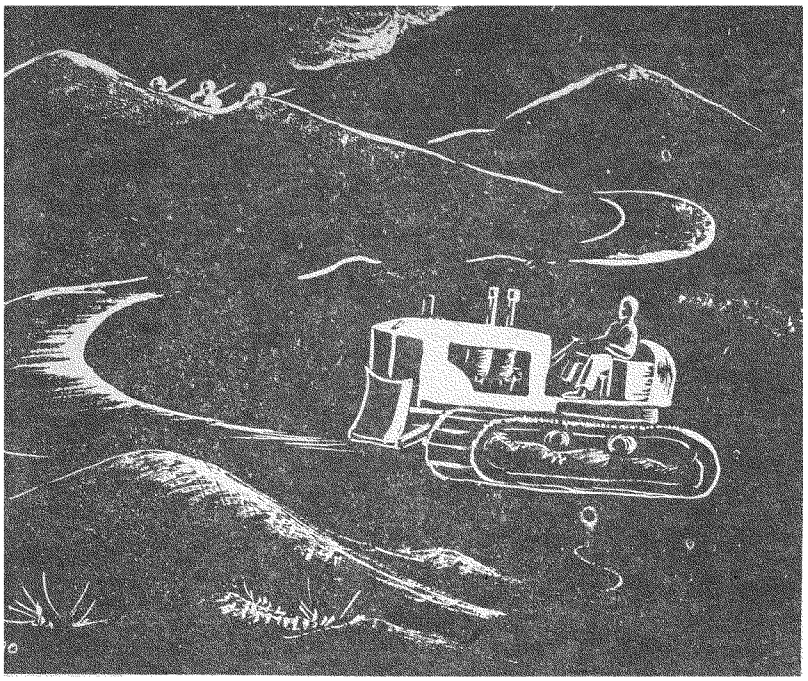

سقوف بيوتها . فقد كان جوابهم للرقيب دوماً: احفر انت ورجالك الخنادق ؛ فليس هذا شأننا ... فما كان من الملازم محمد إلا ان طبق على اهل قرية طيطبا نظام التجول الاجباري ! نظام التجول الاجباري اقول ، لا منع التجول . وذلك انه منع الرجـــال منهم تحت تهديد البنادق المصوبة اليهم ، من دخول بيوتهم . فأجبرهم بذلك على البقاء في ازقة القرية طيلة النهار معرضين للريح الزمهرير ولطلقات بنـادق اليهود التي كانت على قلتها تدعو الى الحيطة والحذر. وظل اهل طيطبا كذلك حتى اقتنعوا ان حفر الخنـــادق حول دور قريتهم هو من شأنهم مثلما هو من شأننا .

وبالطبع كان الغيظ في قلوبنا على اهل طيطبا يدفعنا الى نعتهم بكل نعت مشين . اما الملازم محمد فلم يكن يشاركنا في ذلك . كان يلتمس لهم الاعذار ويزعم ان الانسان مسؤول على قدر ما يفهم . ان اليهود في رأيه لم يكونوا يهددون طيطبـــا ودلاته وعين الزيتون ، وان كانت مستعمرة عين زيتيم على مرمى رصاصة من هذه القرى العربية الثلاث، بل هم في الحقيقة يهددون قرية الملازم محمد الكائنة في ضواحي حلب . ذلك لأن الملازم محمد كان يدرك خطر اليهود على قريته وان بعدت عنهم مسافة ، بينما نام اهل طيطبا ودلاته وعين الزيتون على جهلهم. ان في نومهم ، هكذا كان يقول الملازم محمد، خيراً . أليس هذا النوم على علاته خيراً مما لو كانوا قد باعوا اليهود ارضهم فأصبحت مستعمرات ومعاقل يهودية كما هي الان عين زيتيم ؟... وكانت هذه الحجج المقنعة التي كان يسلسلها الملازم محمد ترغمنا على السكوت وعلى الاقتصاد في النعوت التي كنا نلصقهـــا بهؤلاء الخاملين من اهل القرى التي كنا نرابط فيها .

وانتقلنا من طيطبا الى دلاته لنكون اقرب الى مستعمرة عين زيتيم التي كنا نطوقها . وكان يفصل بيننا وبين تلك المستعمرة تل يشرف عليها ؛ كنا نحتله نهاراً ونضطر لضعف حاميتنا فيه الى الانسحاب عنه ليلاً خيفة هجوم لا قبل لنا برده . وكان ذلك يحز في نفس الملازم محمد فيظل بعض شفته حسرة عـــلى رشاشين يقيمهما على قمة التل ويتحدى بهما كل هجمات اليهود . وانتظر الملازم محمد من قيادته الرشاشين حتى اعياه الانتظار ، حينئذ عاودته نوبة من نوبات فلسفته فقال لي :

— اسمع . سنبيت الليلة على قمة التل . لتذهب الرشاشات الى سقر ، فان لدينا بنادقنا ؛ وهي بنادق صالحة على كل حال ... أليست خيراً من بنـــادق المتطوعين المهترئة ؟ ...

فسألته عمن يريد ان يبقي الليلة على قمة التل ما دام قرر انلا يخليه، فأجاب:

— نحن ، انا وانت وثلاثة آخرين من الجماعة؛ ممن يحب البقاء معنا .

فلم اجرؤ على الاعتراض خيفة ان يظن بي التهرب . كما كنت اعلم انه لن يتزحزح قيد شعرة عن رأيه فيما يتعلق بنفسه . ان له من فلسفته ما يقنع به نفسه ويقنعني دون عنـــاء بوجوب بقائه على التل ، على الاقل لأول ليلة ! فأخذت اتهيأ دون معارضة لقضاء ليلة قارسة البرد على تل موحش مترقباً تسلل فدائي اليهود وانفجار الغامهم وانطلاق نار رشاشاتهم .

ماذا أقص عليكم من حديث تلك الليلة ؟ انها الليلة التي فقدنا فيها الملازم محمد. كنا في خنادقنا التي حفرها رفاقنا قبلنا غارقين في الوحل اللزج الذي تخلف في قاع الخنادق من مزنة عارضة في صباح ذلك اليوم . وكانت اعيننا تتطلع في ثبات الى انوار ضئيلة تتسلل من شقوق براكات مستعمرة عين زيتيم التي لم نكن نميز اشباحها في الظلام المطبق وانما كنا نتوهمها توهماً . وكانت ايدينا تقبض على بنادقنا في شدة ونحن نعلم انها درعنا الوحيدة من عدو سلاحه الغدر وقوته في قدرته على التسلل في ارض يعرفها شبراً شبراً. وطرق اسماعنا صوت هدير منطلق من اتجاه براكات المستعمرة فأمسكت بذراع الملازم محمد وقلت في همس :

هل تسمع ؟ ترى ما هذا ؟

وقدرت ان الملازم محمد ، دون ان اراه في تلك الظلمة ، قد هز كتفيه في لا مبالاة كعادته حين قال :

— لا ادري .

ثم اردف :

— لعله الجرار . ألم تر التراكتور الذي اقاموا به هذه التلول من التراب حول المستعمرة ؟ ربما لم تكفهم هذه الاسوار فهم يحرثون الارض ليزيدوا من علوها ...

واخذ الهدير يزداد شيئاً فشيئاً ، وكان هدير جرار لا شك في ذلـــك . كما كان واضحاً انه كان متجهاً الينا . بل لقد احسسنا بعد دقائق ان الجرار قد امسى في اسفل التل حيث توقف قليلاً ، ثم لم يلبث ان عاود سيره مرتقياً السفح الى حيث كنا . وقال الملازم في حزم :

— خذوا حذركم . الجرار يتجه الينا !

ولم ادر ماذا كان يريد الملاعين من قدومهم الينا بجرارهم . أترامم يجهلون وجودنا على قمة التل فجاءوا به ليهدموا خنادقنـــا ثم ليزرعوا فيها الغامهم ؟ ولكن الملازم محمد كان ادرى مني بالعدو فلم يلبث ان قال :

— اولاد الكلب يستخدمون جرارتهم كدبابة . فلا تطلقوا النـــار قبل ان آمركم لئلا يعرفوا مواقعكم . انتبهوا جيداً .

وحركنا كانا في آن واحد اصابع بنادقنا ونحن نملأ مخازنها بالرصاص . وكان الجرار ، بل كانت الدبابة ، تتسلق التل في عزم وتصميم متقدمة الينـــا دون ان نرى لها شبحاً وان كنا نحس بمواقعها من سفح التل ادق الاحساس وقال الملازم يخاطب احدنا :

— عزيز ... هل تستطيع ان تلقي قنبلتك على برج السائق ؟

فقال عزيز ، رفيقنا الذي كان جندياً نظامياً قبل ان يلتحق بنا :

— امرك سيدي الملازم .

واصبح هدير الجرار زمجرة حين اقترب منا . وتمزق الظلام فجأة اذ انطلق من الهيكل الضخم الذي كان امامنا نور قوي لرصاصة كشافة فضحت مواقفنا امام عيون من في الجرار . ولم يكن هذا في حسابنا . ولقد نسيت

«قبية» الشهيدة

قلبي لظى النيران ، تشهقُ في دمي الذكرى المثيره
انا لا ازال أمور بالأغـــلال ، بالغصص المريره !.
يقظانَ ، ملتهب الشعور ، أعاف عاطفتي النضـــيره
أترقّبُ الفجـــر الســـنيَّ يضيء دنيـــاي الضريره
متفجّراً من غور أعمـــاقي ، وأنفاسي الأخـــيره !.

★

في خافقي جرحٌ أحسُّ من الصدى الدامي ... زئيره !.
ماذا هنـــاك ؟.. أخالُ بركاناً ، تفجّر في الجزيره
أسمعتَ عن صرعى اللئام ، تجذّها الأيدي الحقيره
في زحمة الطـُرُقات ، تصخب بالجمـــاهير الغفـيره ..
ومساء « قبيا » المستجير ، يـلوذ بالظلل النشـــيره
بجماجم المستشهـدين ، تضـــجُّ بالمزَق الوفـــيره !.
من وحشة الأطلال ، تحلم بالهوان — طوى نذيره !.
ويعجُّ سـفح الطهر ، بالجثث المـــلاح المستنـــيره
عن إخوتي الغرثى ، عبيد الشمس ، في وهج الظهيره
يصحون ، من وقع السياط عـــلى ظهورهم الحسيره

★

ودعِ الأساة يثرثرون !! ويلحسون دم العشيره !!
في معبد الشهوات بين الكأس ، من شَبَق السريره
واهتفْ معي !.
عـبر الدمار ، بزفرة « الموتى ! » الكسيره
في مسمع الثـأر المقيَّـــد ، والأعـــاصير الأسيره
طوبى لكم !!
مرحى لنصر العـــار !!
عشتمْ ... يا نسوره !!

بغداد — **علي الحلي**

امر الملازم فانطلقت الرصاصات من بندقيتي دون وعي مني . اما الجرار فقد تطاير منه شرر متلاحق هو نيران رشاش سلطت علينا فأثارت حول رؤوسنا التراب الرطب . ودارت نار الرشاش نصف دورة فوق رؤوسنا بينما سمعت الملازم محمد يصيح بي ليسمعني خلال زمجرة الجرار :

— هل انت سليم ؟

— نعم . ولكن كيف نحارب الدبابة بالبنادق ؟

قال : ألم اقل لك لا تطلق النار ؟ كدت تقتل نفسك .

وكان رشاش الجرار لا يهدأ ولكنـــه كان يصوب الى لا هدف ، او لعل من فيه قد توهموا ناساً غيرنا على قـــة التل . واختلط بالزمجرة وازيز الرصاص صوت انفجار قنبلة يدوية هي قنبلة عزيز التي قذفها . وصاح الملازم في حسرة :

— ضاعت القنبلة ...

ودار الجرار حولنا دورة كاملة دون ان يعثر بخنادقنا . كان جد قريب منا ولعل هذا ما انقذنا منه . وسمعت الملازم محمد يقول في غيظ :

— اولاد الكلب ، سيعودون سالمين !

فقلت له : لا يسمعونك .

قال : هذه البندقية ، لعنة الله عليها ... يلزمنا رشاش مضاد للدبابات على هذا التل . ثم اردف مسرعاً :

— اسمع . ابعد عني واخفض رأسك . اظن ان باستطـــاعتي ان اصيد سائق هذه الدبابة .

فتطلعت في الظلام الى الكتلة التي كانت فيما يخيل الي اقرب من ارنبة انفي. كان الرشاش قد هدأ ولكن زمجرة الجرار بقيت تصم الآذان . وخيل الي ان رأساً ناتئاً كان يبدو واضحاً فوق الكتلة الضخمة المتجانسة. وابتعدت الى آخر الخندق كما اراد الملازم ولكني لم استطع ان اخفض رأسي بـــل ظللت اتطلع الى هيكل الجرار المتحرك . وفجأة لمع ضوء حاد اعقبه ترنح الرأس الناتيء ... لقـــد اصاب الملازم الهدف !.. ولكن شواظاً من نار اعقب رصاصة الملازم فقد انطلق الرشاش ينثر رصاصه علينا اذ فضح الملازم نفسه بالرصاصة التي اطلقهـــا . وزحفت في الخندق ، فرأيته مكوماً على نفسه في قاعه ، فهتفت به :

— كيف حالك ؟

قال بهدوء :

— اظنني اصبته .

ويبدو ان احداً قد اصيب حقاً في الجرار اذ لم يلبث ان انسحب على اعقابه مزمجراً بعد ان بذر قة التل بالرصاص .

ولما ايقنا ان الجرار قد بلغ قاعدة التل تجمعنا نحن الاربعة حول الملازم محمد الذي قال :

— ليشعل لي احدكم سيكارة .

وكان صوته في هذه المرة شديد الخفوت.فمددت كفي اتلمس وجهه فهالني ان وجدت اصابعي تنغمس في سائل لزج حار يغطيه ، فصحت :

— سيدي ، انت مصاب .

فأجاب في هدوء :

— نعم يا بني ، انا مصاب . فضحتني هذه البندقية اللعينة . ولكن مـــاذا نستطيع ان نعمل ؟ أليست خيراً من ان نهجم على الدبابة بايدينا ؟ ...

لا شك في ان ذلك خير من هذا.

انه منطق الملازم محمد الذي لم يفارقه حتى وهو ينزف آخر ما في عروقه من دم . رحم الله ذلك المنطق وصاحبه. اترى لو ملكت ان اسأل الملازم محمد اليوم وملك هو ان يجيبني على سؤالي، أكان جوابه في غير ان يقول لي :

— نعم لقد قضيت برصاصة رشاش بعد ان فضحتني رصاصة بندقية في دلاته . قضيت هنا في فلسطين ودفنت في حفرة ضائعة بعيداً عن قبور الاهل والاصحاب ... ولكن أليس هذا خيراً من ان أعود ، كما عدتم انتم ، محزوناً خاسراً ذليلاً ؟ ...

الرقة سوريا — **عبدالسلام العجيلي**